وعلى هذا النحو، تحوّل المنطق الى منطق القوى، والتاريخ الى تاريخ المنتصرين، وحتى القانون اصبح قانون المنتصرين، وبدأت المأساة متوالية: جان محكوم عليه بالاعدام؛ والمحكمة تحوّلت الى خدعة؛ والمحكمون الى فاعلين؛ والقاضي الى سجّان، والمسؤول، «الشيء» الآخر، ما زال غائباً، غير حاضر، ولم يهتد اليه بعد.

الشيء والشكل

بقي ان نتعرّف على «الشيء الآخر» أكثر، عبر قراءة أخرى لملامح الشكل الفني للرواية، وسوف نتوقف عند هذه الملامح، ونختار منها ثلاثة:

الرواية البوليسية

يلاحظ، هنا، ان استخدام نمطية من أنماط الرواية ليس عملاً عابراً. فاستخدام الشكل البوليسي لم يكن اعتباطاً، ذلك لأن القصة التي يسيطر عليها الراوي، تحتّم عليه ان يستعير هذا الشكل البوليسي. انه عصر علامات الاستفهام الكثيرة والاجابات الحائرة.

ان غسان سأل، في روايته السابقة «رجال في الشمس»، عن لماذا حدث ما حدث؟ وفي الرواية التالية «ما تبقى لكم» استبدل كلمة «لماذا» بكلمة «ماذا» حدث، فتحرك حامد في اتجاه الوعي؟ ولم يلبث ان استبدل الكلمتين بكلمة ثالثة هي «من» قتل ليلى؟

وهو، في كل ذلك، لم يجد أية اجابة في ذلك العالم الذي لا يعرف فيه الحق بل القوة، ولا يعرف الوصول الى الارض السليبة الّا من خلال فوّهة بندقية.

وكأن الراوي أراد ان يقول ان هذه الحبكة البوليسية تظل «معادلاً موضوعياً» لما يفعله الغرب (والصهيونية بالقطع، في فصيل منه) بنا. ان ما يحدث اضحى واقعاً غريباً؛ وقد اصبح، لغرابته، من قبيل المعميات، أو الاحاجي، التي لا نجدها قط، اللهم الّا في الرواية البوليسية، وانْ كانت النهاية، في الواقع العربي على عكس نهايات القصص الفلسطينية ـ لم تأت من جنس الحبكة أو تعبّر عنها.

لقد أصبح هذا الواقع أقسى من واقع أية قصة أخرى، حتى ولو كانت قصة بوليسية.

اللغة الرمزية

ولوحظ، في هذا كله، تلك اللغة الرمزية الموحية، فوصلت الى أقصى درجاتها في شخصية ليلى الحايك وصالح؛ فكلاهما رمز لـ «شيء» أكبر منهما، أو ضحية لشيء هو أكبر منهما؛ قوة غير متكافئة.

واذا كان الرمز جلياً في روايتيه «رجال في الشمس» و«ما تبقّى لكم»، فهو، في «الشيء الآخر»، قد استحوذ على مساحة شاسعة من الفعل الابداعي. فالرمز في «الشيء» أو رمز «الشيء» ظل من أكثر الرموز دلالة على القوى الخفية، التي تتحدّى الفلسطيني وتحوّله، كما نرى، من ضحية الى متّهم. ولوحظ ان الرمز كان في عديد من أعماله من هذا «الشيء» أو استخدم هذا «الشيء»، سواء بشكل مباشر أو غير مباشر. ففي مسرحية «الباب» سمعنا صوت إله قبائل عاد، الذي تحوّل، أمام احد المتمردين، الى قدر مجهول لا يستطيع احد التغلّب عليه، فقال: